جغرافيا الخوف في لبنان:
الطوائف والحماية الخارجية؟

يوسف وهبي



أَينتمي اللبناني إلى وطن أم إلى طائفة؟

تأمّل الكيان الذي يُدعى «لبنان»، يدفعك إلى مراجعة تاريخية تساعد على فهم أنه ليس وطناً متجانساً بالمعنى الكلاسيكي، بل هو أشبه بفسيفساء تتألّف من كيانات، اجتمعت لتشكّل «شبه وطن»، تندر بينها المشتركات الأصيلة. أمّا ما يجمعها ظاهريّاً اليوم فهو مُستحدثات طارئة فحسب؛ قد يجمعها صوت فيروز في الصباح، وأطعمة، وطقوس الأفراح والأتراح، لكنّ الثقافة المشتركة والهوية الجامعة تبقيان غائبتين.

والعودة بالزمن، تُظهِر لنا «عقدة البقاء»؛ إذ إن كل مجموعة مُكوِّنة لهذا المجتمع تمتلك «مظلة حماية» خارجية خاصة بها، امتدّت جذورها مئات السنين. ولم تكن هذه الحماية ترفاً سياسياً، بل غريزة وجودية نشأت من رحم الخوف.

الروم والسريان، الأقدم في هذا المشرق. كانت أنظارهما تتجه دائماً نحو بيزنطيا (بلاد الروم)، وروسيا لاحقاً. والموارنة الذين انتشروا في جبل لبنان هرباً من الاضطهاد، تبلور حضورهم الجيوسياسي مع الحملات الصليبية قبل نحو 900 عام، مع أن كنيستهم نشأت قبل ذلك بقرون، ثم ظهرت الحماية الفرنسية بعد أحداث 1860. أمّا الدروز الذين تبلورت عقيدتهم في نهايات العهد الفاطمي قبل ألف عام، فاستوطنوا هذه الجبال، وعانوا من سلطات نكّلت بهم، وكلّما استشعروا الخطر المحيط، بحثوا عن توازنات دولية تحميهم، وصولاً إلى الرعاية الإنكليزية في القرن التاسع عشر. بينما شكّل السُّنَّة الامتداد الطبيعي للسلطات المتعاقبة التي حكمت المنطقة، فكانوا حماة الولاة، مستمدّين نفوذهم وحمايتهم من السلطة المركزية، سواء أكانت مملوكية أم عثمانية.

وسط هذه المعادلة المُعقّدة، تبرز السردية الشيعية في لبنان بمسار مختلف ومُثقل بالمحطات القاسية. فالشيعة لم يأتوا من خارج هذه الجغرافيا، فالتشيّع انتشر مبكراً في جبل عامل، بين أبناء البلاد الأصليين الذين ينتمون إلى الجذور الكنعانية والعاملية (قبيلة عاملة اليمنية التي انتقلت إلى هذه المنطقة عقب انهيار سدّ مأرب عام 150 ق.م)، وذلك منذ وصول الإسلام إلى تلك الرقعة، والذي يُعزى تاريخياً إلى جهود الصحابي أبي ذر الغفاري، الذي بفضله ارتبطوا بآل بيت النبي.

انتشر مذهب التشيّع في هذه البلاد كالنار في الهشيم، وحظي الشيعة في فترات متقطّعة بحمايات من دول إسلامية شاركتهم المذهب، كالبويهيين والحَمدانيين والفاطميين. ومع تبدّل موازين القوى، بدأت سلسلة من الانهيارات. ومع الغزو الصليبي، تعرّضت الطائفة الشيعية لأول تحجيم دموي عبر إسقاط دولة «بني عمار» في طرابلس عام 1109، وولاية صور 1124. فاستُبيحت السواحل، وقُتل كثير، ولجأ الناجون إلى الجبال الوعرة، فمنهم من هادن نتيجة غياب حماية خارجية، ومنهم من قاوم كأهل مدينة جزين. بانحسار المدّ الصليبي، لم يأتِ الفرج.

وبينما حمت «ذمّة أهل الكتاب» الموارنة من الإبادة، فهي لم تشفع للشيعة، فتعرّضوا لشبه إبادة ثانية على أيدي المماليك، تجلّت أبشع صورها في حملات كسروان التي طُرِدوا منها، بعد مجازر مستمرة من عام 1292 إلى عام 1305. ورغم الانهيار، حمل جبل عامل الروح العلمية والجهادية، عندما تولّى الشيخ محمد بن مكي الجزيني (المعروف بالشهيد الأول) في منتصف القرن الرابع عشر نقل مركز الحوزة العلمية من الحلّة في العراق، إلى مدينة جزين التي صمدت في وجه العواصف، لتصبح عاصمة التشيّع، واستمرت هكذا أكثر من 400 عام.

عاش الشيعة خارج جبل عامل ما يزيد على قرن في حالة انكسار تـام، حـتى بـزوغ فجـر الدولـة الصفوية في إيران مع بداية القرن السادس عشر، فاستعانت بعلماء جبل عامل لتأسيس حوزتهـا العلمية. هنا، وللمرة الأولى منذ زمن بعيد، حصل شيعة لبنان على ظهير قـوي، واسـتقرّوا بـدعم إيراني نحو 250 عاماً، تمتّعوا فيها بشبه حكم ذاتي وازدهار علمي واقتصادي، حتى أصبحت هــذه الرقعة ملاذاً آمناً لكلّ الطوائف المضطهدة من السلطات العثمانية.

ومع أفول نجم الدولة الصفوية، وما تلاه من فوضى عارمة اجتاحت إيران إثـر مقتـل «نـادر شـاه الأفشاري»، تهاوت مظلة الحماية. أمام هذا الواقع الجديد، فرضت غريزة البقاء تموضعاً سياسـياً واجتماعياً لافتاً في المنطقة؛ إذ تلاقت إرادات السُّنّة والشيعة والدروز في تحالف محلي تـاريخي، للوقوف صفاً واحداً بوجه مركزية السلطة العثمانية.

أثمر هذا التكتل ما يربو على ثلاثين عامـاً، بين عـامي 1745 و1775م، من الاسـتقرار والازدهـار الاقتصاديَّيْن، تنفّست في تلك المدة الزمنية المنطقة الصعداء وعاشت تجربة فريدة من التضامن الداخلي. غـير أن الإمبراطوريـات لا تتسـامح مـع النزعـات الاسـتقلالية؛ فمـا إن استشـعر البـاب العالي في إسطنبول خطر هذا التحالف المتماسك، حتى تحرّكت الآلة العثمانية الباطشة، مكلِّفـةً «أحمد باشا الجزار» بمهمة دموية واضحة: كسر شوكة هذا التحالف واجتثاثه من جذوره.

وكعادة صراعات النفوذ الكبرى، كان الثمن الأعظم من نصيب المُكوِّن الذي فقد سنده الخارجي؛ فدفع شيعة جبل عامل ضريبة الدم، واجتاحت الجيوش القـرى والحواضـر، لتُسـجَّل في صـفحات التاريخ مجازر مروّعة وحرب إبادة ثالثة أتت على البشـر والحجـر، وأُحـرِقت المكتبـات والمراكـز العلمية. كانت تلك الضربة قاصمة بكل المقـاييس، أدخلت الشـيعة في نفـق مُظلِم من التهميش والغياب، ولم تقم لهم قائمة فاعلة في المعادلة السياسية والاجتماعية إلا بعد أكثر من قرن.

تبلورت بعدها صورة لبنان الحـديث بنـاءً على نظـام الحمايـات، وذلـك في مطلـع القـرن التاسـع عشر: فرنسا تحمي الموارنـة، إنكلـترا تحمي الـدروز، السـلطنة العثمانيـة تـرعى السُّـنَّة، روسـيا تظلّل الروم الأرثوذكس. في تلك الحقبة، تُرِك الشيعة مُجدّداً بلا ظهـير، ودفعـوا ثمن هـذا العـراء الإستراتيجي.

اسـتناداً إلى هــذا السـرد المنهجي والتـاريخي، نصـل إلى اسـتنتاج فلسـفي وواقعي: إن طلب «الحماية» في التركيبة اللبنانية صار مثل «قانون طبيعي» يفرضه الإقصاء. حتى بات من الصعب على أي طائفة في لبنان التخلّي عن حمايتها الخارجية، لأنها تدرك في لاوعيهـا التـاريخي العميـق أن ضعف حمايتها يعني بداية إقصائها أو إبادتها.

لذلك، من العبث محاكمة الحاضر بأدوات مثالية غير واقعية. إن الشيعة اليوم، حين يفتخرون بأن إيران مظلة حماية لهم، رغم قوّتهم الذاتية ووحدتهم وتحالفاتهم المتعـدّدة، فهم يمارسـون حقهم في البقاء، تماماً كما تعتمد الطائفة السنّية على العمق السعودي حالياً والعربي المشرقي سابقاً، وكما يرنو المسيحيون دائماً نحو الغرب لضمان وجودهم.

إن فكرة «الوطن» المُندمِج كلياً ما زالت مشروعاً مؤجّلاً في لبنان. نحن أمـام كيـان تشـكّل من هواجس مجموعات تنتظر الفرصة لتسـتقوي على بعضـها كلّمـا اختلّت مـوازين القـوى. والتـاريخ

يشهد أن من يفتقد إلى الدرع الخارجي تبتلعه الجغرافيا، وأن الشيعة في المراحل الـتي امتلكـوا فيها القوة، لم يسعوا لإقصاء غيرهم، بل كانوا دوماً سند المضطهدين.

لكلّ هذه الأسباب، يبقى السؤال: هل مِن مَخرج؟

لا يبدو الخروج من هذا الوضع يسيراً لكنه ليس مستحيلاً، فإدخال الطمأنينة إلى نفوس اللبنـانيين يحتاج إلى إستراتيجية دفاعية مُقنِعة، لا بِرَميٍ البلاد في مهبّ العلاقات الخارجيـة، كمـا وإلى بنـاء دولة مواطنة حقيقية يخرج اللبناني فيها من مرحلـة ابن الطائفـة إلى ابن الـوطن، وهـذا لا يمكن أن يحصل في ظل الاستقواءات الخارجيـة، بـل يحتـاج إلى نقـاش فعلي وجِـدّي يصـل إلى نتيجـة واقعية.